السرد بوصفه حجاجا:
بين النظرية العربية لمحمد مشبال والرؤية الغربية لآلان راباتال

دة: آمال بن الطاهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش

المملكة المغربية

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مقاربة السرد من زاوية حاجته الإنسانية والبلاغية، انطلاقًا من تصورين متباعدين جغرافيًا ومتقاربين معرفيًا: التصور العربي الحديث لدى محمد مشبال، والرؤية الغربية كما صاغها آلان راباتال. ينطلق المقال من التأكيد على أنّ السرد ليس مجرد أداة للتسلية أو تسجيل الوقائع، بل هو ممارسة خطابية ذات وظيفة حجاجية، تستثمر البعد العاطفي والعقلي في آن واحد، بغية التأثير في المتلقي وتوجيه موقفه. وقد أبرز مشبال، من داخل الدرس البلاغي العربي الجديد، أن السرد يشكل حاجة للتأثير والإقناع، ويُعاد توظيفه في سياقات تداولية تجعل منه عنصرًا فاعلًا في الحجاج. أما راباتال، فاعتبر السرد بنية خطابية حوارية تنفتح على شروط التلقي والتأويل، مما يوسع من مجال توظيفه في البلاغة المعاصرة. ويخلص المقال إلى أنّ الجمع بين التصورين يكشف عن طبيعة السرد كحاجة مزدوجة: حاجة للتعبير عن الذات والجماعة من جهة، وحاجة للإقناع والتأثير من جهة أخرى، وهو ما يمنحه مكانة مركزية في البلاغة الجديدة والدراسات السردية الراهنة.

الكلمات المفتاحية: السرد، الحجاج، البلاغة العربية الجديدة، محمد مشبال، التداولية، آلان راباتال.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة:

يعدّ السرد إحدى الحاجات الإنسانية العميقة التي لازمت الإنسان منذ فجر التاريخ، فهو الوسيلة التي يعبّر بها عن تجربته في العالم، ويعيد من خلالها ترتيب وقائع حياته في شكل قصصي يمنحه المعنى والقدرة على التواصل. غير أنّ هذه الحاجة لم تقتصر على كونها غريزة حكي أو مجرد أداة للتسلية، بل تحولت إلى موضوع تنظير نقدي وبلاغي يكشف عن وظائفه المعرفية والحجاجية. وفي هذا السياق، يبرز التصور العربي عند محمد مشبال الذي ينظر إلى السرد باعتباره أداة للإقناع، تتحقق من خلال تضافر البعدين العاطفي والعقلي في الخطاب، بحيث يصبح السرد شكلاً من أشكال الحجاج لا ينفصل عن شروط التداول والتأثير. وفي المقابل، نجد الرؤية الغربية لدى آلان راباتال التي تلتقي مع مشبال في إبراز الوظيفة الحجاجية للسرد، لكنها توسّع أفق النظر إلى بعده التداولي والحواري، معتبرة إياه ممارسة خطابية تستجيب لشروط التلقي وإعادة إنتاج المعنى. وبين هذين التصورين تتأسس مقاربة مزدوجة تبرز السرد باعتباره حاجة مركّبة: حاجة للتأثير والإقناع من جهة، وحاجة للتعبير عن الذات والجماعة من جهة أخرى، مما يمنحه موقعًا متميزًا في البلاغة الجديدة وفي الدراسات السردية المعاصرة.

تنطلق هذه الدراسة من وعي نقدي بأن السرد لم يعد مجرد بناء حكائي مستقل عن مقاصد القول، بل أصبح في صميم الممارسة الحجاجية التي تستهدف التأثير والإقناع. ومن هنا تُطرح الإشكالية المركزية: كيف يتحدد موقع السرد بوصفه حاجة إنسانية في ضوء التفاعل بين البعد البلاغي العربي عند محمد مشبال والرؤية الغربية عند آلان راباتال؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الجزئية: ما حدود التداخل بين الحجاج والسرد في التصور العربي الحديث؟ وما أوجه التقاطع والاختلاف بين هذا التصور والرؤية الغربية؟ وأي قيمة يضيفها الجمع بينهما لفهم السرد في بعده الإنساني والبلاغي؟

وتهدف هذه الدراسة إلى إبراز الوظائف الإقناعية للسرد في ضوء النظرية البلاغية الجديدة، ورصد الكيفية التي جعلت منه حاجة مزدوجة: حاجة للتعبير عن الذات والجماعة، وحاجة للتأثير في المتلقي وتوجيه موقفه. كما تسعى إلى إغناء الحوار بين البلاغة العربية الحديثة والنظرية الغربية، بما يفتح آفاقًا أرحب لدراسة السرد الحجاجي في سياقاته المختلفة.

I. مفهوم السرد:

للسرد في معناه البسيط ــ كما ورد في لسان العرب[1] ــ مفهومات مختلفة تنطلق من أصله اللغوي، الذي يعني ــ مثلا ــ التتابع في الحديث.

[1] ــ جاء في لسان العرب أن السرد هو: " تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متّسقًا بعضه في أثر بعض متتابعاً ويقال: سَرَدَ الحديث ونحوه، ويسْرُدُه سردًا: إذا تابعه، وفلانٌ يسْرُد الحديثَ سردًا: إذا كان جيد السياق له، وسرد القرآن: تابع قراءته في حذر منه، والمِسْرَدُ اللسان، وسرد خف البعير سرْدا خصفه بالقدِّ. وفي القرآن الكريم وردت لفظة "سرد" في قوله تعالى: "أن اعمل سابغات وقدِّرْ في السَّرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير". (سبأ/11).

قيل ألا يجعلَ المسمار في الدروع غليظا، والثقب دقيقا، فيفصم الحلق ولا يجعل المسمار دقيقا والثقب واسعا، فيتقلقل أو يتخلع، أو ينقصف، وأن يجعله على القصد وقدْرِ الحاجة، ابن منضور، لسان العرب، مادة (سرد)، مذكور.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وعموما فالسرد مصطلح نقدي حديث يفيد حسب جيرار جنيت "قصّ حادثة واحدة أو أكثر، خيالية أو حقيقية"[1]. وهذا يعني أن السرد لا يوجد إلا بواسطة الحكاية، فهو ــ حسب الدكتور حميد لحمداني ــ "الطريقة التي تُروى بها القصة عن طريقة قناة الراوي والمروي له". وفي رأيه إن القصة لا تحدد بمضمونها فحسب ولكن بالشكل والطريقة التي يقدم بها ذلك المضمون[2].

أما سعيد يقطين فيعرفه في كتابه "الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي" قائلا: " [السرد هو] فعل لا حدود له يتسع ليشمل الخطابات سَواء كانت أدبية أو غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان، ويصرح رولان بارت (Roland Barthes) قائلا: يمكن أن يؤدى الحكي بواسطة اللغة المستعملة شفاهية كانت أو كتابية، وبواسطة الصورة ثابتة أو متحركة وبالحركة وبواسطة الامتزاج المنظم لكل هذه المواد، إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثولة والحكاية والقصة..."[3].

ويذهب الدكتور سعيد يقطين في الصفحة ذاتها مفسرا تعريفه للسرد بأن هذا الأخير بمثابة إعادة متجددة للحياة؛ إذ تجتمع فيه أسس الحياة من شخصيات وأحداث وما يؤطرهما معا من زمان ومكان، تدخل في صراع يحافظ على حياة السرد وسيرورة الحكي وفق تعدد لغوي وإيديولوجي وفكري يتسع ليشمل خطابات متعددة ومختلفة.

وإجمالا؛ فإننا لن نطيل الحديث عن التعريفات التي قُدِّمت لمفهوم "السرد"؛ لأنها ستقودنا إلى تعريفات متعددة وترجمات مختلفة فيما يخص بعض المصطلحات المشتقة من الجذر ذاته (س ر د) مثل: (السرديات، وعلم السرد، والسردية،...). لذلك اقتصرنا فقط على بعض التعريفات التي تشترك ــ بشكل عام ــ في جوهر دلالة المصطلح. لاسيما وأننا بصدد تمثل حدود العلاقة بين الحجاج والسرد.

II. العلاقة بين الحجاج والسرد:

إن هناك علاقة وطيدة بين الحجاج من جهة ومختلف أنواع الخطابات من جهة ثانية؛ فاللغة الطبيعية ذات سمة حجاجية، يذهب أبو بكر العزاوي في هذا الصدد قائلاً: "إن الحجاج اللغوي هو منطق اللغة وهو المنطق الطبيعي الذي نجده في كل النصوص والخطابات التي تنجز باللغة الطبيعية بمختلف أنواعها وأنماطها"[4]. ومن ثمة لا وجود لخطاب هادف ومُبَين من دون حجاج. "فالحجاج نجده في القصيدة الشعرية والمقالة الأدبية والخطبة الدينية والمحاورة اليومية واللافتة الإشهارية والمفاوضات التجارية والأطروحات الجامعية والمناظرات الفكرية والندوات العلمية والرواية والمسرحية والخطاب السياسي والخطاب المسرحي والنص البصري وغيره. إذن كل الخطابات والنصوص حجاجية، لكن مظاهر الحجاج ودرجته تختلف من نص لنص آخر، فهناك فرق بين القصيدة الشعرية ذات البعد الفني الجمالي ومرافعة المحامي ذات الطابع الدفاعي القانوني"[5].

وهكذا؛ فإن هذا القول يؤكد أن الحجاج غاية متوخاة من كل خطاب، إلا أن نوعية الحجاج تختلف من جنس أدبي ونمط خطابي إلى آخر؛ تبعا للسمات البنائية، والموضوعاتية، والتصويرية، وكذا اللغوية لكل صنف خطابي بعينه. ومن ثمة ينطلق الحجاج

---

[1]ــ محمد عناني: معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط3، 2003م، ص 59.

[2]ــ ينظر: حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب ط1، آب1991، ص45.

[3]ــ سعيد يقطين: الكلام والخبر مقدمة السرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 19.

[4]ــ أبو بكر العزاوي: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت ــ لبنان، ط1، 2010، ص9.

[5]ــ أبو بكر العزاوي: من المنطق إلى الحجاج from logic to argumentation، عالم الكتب الحديث، إربد ــ الأردن، ط1، 2016، ص29.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

في اللغة عامة من مسلمة " أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"[1]. هذه المسلمة التي تحاول أن تبين أن اللغة الطبيعية تحمل بصفة ذاتية وجوهرية (Intrinsèque) وظيفة حجاجية، يُؤشر لها في البنيات القولية وفي المحتوى القضوي، وفي كل المظاهر الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية والدلالية[2]. كما أن الطبيعة الإنسانية في عمومها تنزع إلى الحجاج والمحاججة قصد إفحام الخصم وغلبته بالحجج والأدلة.

وعموما؛ فإننا سنعمل في هذه الورقة لا على تبين حدود التقاطع بين الحجاج وأشكال الخطاب عامة؛ وإنما على رصد العلاقة بين الحجاج ونمط بعينه من الخطاب ألا وهو "الخطاب السردي" داخل التصور الحجاجي، متخذين من تصور كل من الدكتور محمد مشبال من خلال كتابه "في بلاغة الحجاج ـــ نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات" وآلان راباتال عبر كتابه«Argumentation en racontant (re) lire et (ré) écrire les textes littéraires» كأنموذجين على ذلك.

1. نبذة عن تصور محمد مشبال للعلاقة بين السرد والحجاج:

بالرغم من الاهتمام البالغ الذي حظيت به الدراسات السردية من لدن النقاد والدارسين، فقد ظل الاهتمام بالعلاقة بين السرد والحجاج ـــ لاسيما السرد الحديث ـــ شبه مغيب في متون هذه الدراسات المتنوعة. علما أن العلاقة بين هذين النمطين متجذرة تاريخيا؛ إذ تارة نجد السرد يكون في خدمة الحجاج، وتارة أخرى يكون الحجاج في خدمة السرد.

ففي خدمة السرد للحجاج نلفي الدكتور محمد مشبال في معرض دراسته للمثل[3] في كتابه "في بلاغة الحجاج نحو مقاربة حجاجية لتحليل الخطابات"، يعُدّه مكونا حجاجيا يسعى إلى تبليغ حكمة فهو ـــ حسب قوله ـــ محكي في درجته الدنيا؛ محكي لأنه "يخدم الحجاج أو الغرض الإقناعي للخطابات"[4]. ويضيف أن معظم الدارسين المعاصرين يتفقون على أن (المثال) عند أرسطو يؤكد حضور السرد (أو التخييل) في الحجاج، أو تضمين السرد في الخطاب الحجاجي. فالمثال هو أحد مصادر السرد في الخطاب الحجاجي وفق النظرية البلاغية القديمة، إلى جانب (العرض) وهو تقنية من تقنيات ترتيب أجزاء الخطاب (ص 107).

وهكذا؛ فالنص السردي ـــ حسب الدكتور مشبال ـــ يلتقي مع العديد من التقنيات البلاغية الحجاجية كالمثل والتمثيل؛ إذ كل هذه العناصر تزاوج في نسج خطابها بين التخييل والإقناع، وبين وصفها للعالم وتصويره من جهة، وبين تعديل اعتقاد المتلقي وتحفيزه على العمل من جهة أخرى.

ويضيف الباحث في معرض آخر من الكتاب نفسه مؤكدا خدمة الحجاج للسرد بقوله: "إن الحجاج يتخلل مواضع من النص (السردي) من قبيل الحوارات والوقفات الوصفية والمشاهد السردية والتعليقات التأويلية"[5]. وإن هذا القول يؤكد أننا لا نكاد نفرغ من قراءة رواية أو قصة أو حكاية أو أي نص سردي حتى يتبدى لنا الأسلوب الحجاجي بشكل بارز سَواء على

---

[1] ـــ أبو بكر العزاوي: من المنطق إلى الحجاج from logic to argumentation، مذكور، ص 70.

[2] ـــ ينظر: نفسه، ص 71.

[3] ـــ صحيح أن المثال يندرج ضمن المحكيات السردية القديمة، ونحن في ورقتنا هذه نسعى إلى تبين العلاقة بين السرد والحجاج في الخطاب السردي الحديث؛ إلا أننا أشرنا إلى بعض ملامح هذه العلاقة في بعض الأنماط السردية القديمة. لنؤكد أن العلاقة بين الخطابين متجذرة منذ أقدم العصور.

[4] ـــ محمد مشبال: في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2017م، ص 106.

[5] ـــ محمد مشبال: في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، مرجع مذكور، ص122.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لسان الراوي ذاته أو على لسان الشخصيات؛ يبرر سلوكات كل منهما (الراوي والشخصيات)، وكذا أقوالهما وإدراكاتهما، وغيرها من العمليات الذهنية والوظائف اللغوية التي يؤديها كل من الراوي والشخصيات في النص السردي. فمختلف الرؤى والمنظورات التي يشير إليها النص الروائي؛ تعد أحد المصادر الأساس للتوجه الحجاجي والتأثير الإقناعي غير المباشر؛ إذ تكشف العديد من العناصر اللغوية والأسلوبية في النص السردي عن أحكام القيمة للذات المدرِكة (قد تكون إحدى الشخصيات المتخيلة، كما قد تكون الراوي ذاته).

كما قد يتجلى الحجاج في النصوص السردية عبر دفاع الذات المتحدثة (الراوي ــ الشخصيات) عن إحدى القضايا ووجهات النظر المعروضة إما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر. بل والأكثر من ذلك قد تُختزل القصة أو الرواية إلى فكرة محددة أو قضية بعينها تكون هي الإطار الذي يتمحور حوله السرد. الأمر الذي من شأنه أن يمد جسور التواصل بين النص التخييلي والمتلقي بتعليمه وإفادته برأي أو حكمة، أو بتهذيب أخلاقه، أو بإقناعه بصحة مسألة أو قضية قصد تثبيتها وتقويتها في نفسه، أو بحمله على إنجاز فعل ما. فإذا كان السرد يحول المعنى المجرد إلى حضور حسي وعاطفي؛ إذ يصف الحدث بقدر من التفصيل لتشويق المتلقي وتأجيج رغبته في تتبع مختلف فصول النص السردي؛ فإنه يجسّد بهذا؛ الدعوى المطروحة في النص خدمة لمشروع الإقناع.

ذلك أن الحجاج قد يُبنى في النص السردي وفق حجج عقلية (من قبيل القيم المتفق عليها والأمثال السائرة أو من خلال استخدام شخصياتها لتقنيات حجاجية عقلية متعددة)، وقد يُبنى وفق وسائل تحيل إلى الشخص؛ شخص المتكلم (فقد يكون الحجاج على بناء صورة إيجابية للذات) أو شخص المتلقي (لا يخلو النص السردي من علامات لإثارة أهواء المتلقي للتأثير فيه)[1].

فإذا كان السرد ــ حسب الباحث ــ باعتباره نمطا من أنماط القول أو الخطاب، يقوم على حركة في الزمن ويرصد العلاقة بين الوقائع وتتابعها والتحول في خصائص الفاعلين، وكان الحجاج باعتباره نمطا آخر من أنماط القول والخطاب، يسعى إلى إقناع المتلقي وتصديقه للدعوى، ويقوم على بنية ثابتة لا زمنية، مثله مثل الوصف الذي يسعى إلى تحديد صفات الموضوع في الفضاء، فإن هذه الأنماط ــ كما يقول الدكتور مشبال ــ لا توجد منفصلة في النصوص؛ إذ تتداخل وتأخذ أوضاعا وأشكالا ووظائف تتحدد على أساسها طبيعة النص. ويضيف أنه إذا كان الحجاج والوصف يخدمان الحبكة في النصوص السردية التخييلية (الرواية مثلا)، فإن ثمة نصوصا سردية حجاجية (الخبر والنادرة والأمثولة...) تُسخَّر فيها الحبكة السردية لخدمة الحجاج؛ وفي هذه الحال يصبح النص السردي مثالا استقرائيا exemple inductif؛ أي حكاية تتضمن بنية حجاجية مثلما يتضمن المثال exemple والتمثيل analogie؛ إنها تقنيات يتلازم فيها الحجاج والتخييل (أو الحجاج و السرد)[2].

ولا بد أن نشير هنا إلى أن الدكتور مشبال في كتابه ــ الذي اعتمدناه كمتن عربي/مغربي لتبين العلاقة بين الحجاج والسرد ــ يشير في أحد مواضعه إلى أن السرد الروائي يتعارض مع السرد الكلاسيكي؛ ففي السرد الروائي يكون الحجاج خادما للحبكة السردية ــ كما أشرنا سابقا ــ كرغبة السارد في توصيل وجهة نظره وأحكامه القيمية، وحجاج الشخصيات عندما تترجى وتهدد وتندب وتنهى وتحرض وتدافع وتتهم وتستحسن وتستهجن وتضرب الأمثلة وتستشهد ويطوع بعضها بعضا، وغير ذلك

[1] ــ ينظر: نفسه، ص 122.
[2] ــ ينظر: نفسه، ص 112.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

من مظاهر الحجاج التي لا يخلو منها النص السردي التخييلي (الرواية)، لكنها تظل أفعالا بلاغية حجاجية تابعة للسرد وخادمة له؛ تكشف عن الشخصيات وتسهم في نمو الحبكة من دون أن تجعل النص السردي حجاجيا في مجموعه[1].

وإجمالا؛ فافتراض التداخل بين السرد والحجاج؛ قائم على أساس أن السرد معني منذ القدم بالتواصل مع القارئ؛ إذ كان ــ حسب قول الدكتور مشبال ــ وسيلة ممتعة للتثقيف والتعليم والتوجيه الاجتماعي والخلقي. ومن هنا أمكن النظر إلى السرد القديم بأنه كان أداة في خدمة الحجاج؛ فالنصوص السردية القديمة كالنوادر والأخبار والحكاية والأمثال وغيرها من الأنماط الحكائية القديمة الأخرى نصوص سردية حجاجية، القصد منها إحداث التأثير في المتلقي[2].

ومع ذلك فإننا نرى أنه ليست كافة النصوص السردية الحديثة تسعى في المحصلة النهائية إلى صياغة دعوى صريحة أو توصيل حكمة أو وجهة نظر معينة يتوخى المؤلف من خلالها دفع المتلقي إلى تشكيل موقف معين. فالرواية تسعى بالأساس إلى إمتاع القارئ وإفساح آفاق مفتوحة أمامه للعمليات التأويلية (الهيرمونيطيقا).

صحيح أن السرد في الرواية الحديثة لم يعد في خدمة الحجاج كما كانت الحال عليه في السرد القديم؛ إلا أن الرواية مع ذلك لا يمكنها أن تتخلص من بلاغة الحجاج. فهذا الجنس ــ حسب ما ذهب إليه الدكتور مشبال ــ الذي يقوم على إعادة صياغة وتنظيم خطابات الحياة في حبكات سردية، لا يمكنه أن يقوم من دون حجاج، لكنه في هذه الحال يكون حجاجا في خدمة السرد وليس العكس. فليس مطلوبا من الرواية أن تبني مواقف حجاجية (التأثير في المتلقي)، ومع ذلك يندر وجود رواية تخلو من شخصيات تتحاجج وتتجادل فيما بينها ما دام ذلك لا يكون على حساب بعدها التخييلي[3].

ونخلص من تصور الدكتور محمد مشبال إلى أن النص السردي الحديث يتجاذبه بعدان؛ البعد الجمالي (الإستيتيقي) والبعد الحجاجي (وإن كان لا يُبنى عليه دائما). فحسب تعبيره يمكن حتما صهر صيغتين خطابيتين هما: (السرد والحجاج)، وذلك لتأدية وظيفة تداولية. ويؤكد ذلك بقوله: "ليس النص السردي إذن حكاية ممتعة فقط، ولكنه أيضا أداة للتواصل؛ أي إنه يقوم على حكاية وشخصيات ووصف وتشويق، على نحو ما يقوم أيضا على موضوع ذي طابع اجتماعي؛ فالغاية منه توجيه الاعتقاد لأجل توجيه الفعل"[4] . كما أنه (أي النص السردي) يضم بين ثنايا حكايته/ حكاياته الحجاج الذي يتشكل سردا، وبذلك تتحطم الفوارق المميزة بين السرد والحجاج[5].

فإذا سلمنا بالفكرة القائلة: إننا نتحدث بهدف التأثير، لاسيما إذا اعتبرنا الحجاج ظاهرة لغوية تحضر في مختلف أجناس الخطابات، فالسرد بذلك يشمل حتما الحجاج، لأنه يروم الإقناع والتأثير بالأساس. فالخطاب حسب إميل بنفنيست: "كل قول يشمل الحجاج لأنه يفترض متكلما وسامعا مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجود في هذا السامع"[6]. ونضيف إلى قول

---

[1] ــ ينظر: محمد مشبال: في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، مرجع مذكور، ص 122.

[2] ــ ينظر: نفسه، ص 131.

[3] ــ ينظر: نفسه، ص 131ــ 132.

[4] ــ نفسه، ص 117.

[5] ــ Voir: Aron Kibédi Varga, Discours, Récit, Image, op, cit, p. 20

[6] ــ أحمد يوسف: سيميائيات التواصل وفعالية الحوار: المفاهيم والآليات، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران، الجزائر، ط1، 2004م، ص 88.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بنفنيست: إن الخطاب الواحد هو في جوهره جملة من الخطابات والمواقف والرؤى والمقصديات. ومن ثمة فالخطاب المفرد هو مزيج من الصيغ النصية، والأنماط التعبيرية التي تؤكد تبعية، وكذلك خدمة كل منها للآخر.

2. نبذة عن تصور آلان راباتال للعلاقة بين السرد والحجاج:

إن مختلف الجوانب التي سبق ذكرها في تصور الدكتور محمد مشبال حول العلاقة بين السرد والحجاج، وغيرها كالتساؤل عن كيفية عمل الحجاج داخل المحكي؟ وتقصي بعده الوظيفي داخل الخطاب السردي؟ وكيفية تفاعل السردي مع الحجاجي؟ فجل هذه الجوانب جديرة بالاهتمام والبحث داخل الدراسات السردية العربية. الأمر الذي نجده لدى بعض الدارسين الغربيين للسرد الغربي كالباحث الفرنسي آلان راباتال الذي أخلص جل كتاباته لتقصي/ وتمثل العلاقة بين السرد والحجاج، لاسيما كتابه الموسوم بـــ: «Argumentation en racontant (re) lire et (ré) écrire les Textes littéraires».

فآلان راباتال طمح عبر كتابه هذا؛ إلى التمهيد لتصور حجاجي جديد ينبني على مد الجسور بين الحجاج والسرد. مؤكدا عدم رفضه للأشكال الحجاجية الكلاسيكية، بقدر ما يرفض الانحسار داخلها من دون بلوغ عوالم حجاجية جديدة تندد بتنوع الأساليب الحجاجية في إطار تصور تداولي/تخاطبي للغة وللقراءة معا.

إن راباتال يؤكد في جل فصول كتابه على دينامية الحجاج؛ وأن طرقه وأساليبه تتنوع بتنوع الأجناس النصية والعصور التاريخية، وكذا بتنوع ظروف إنتاجه تبعا لسياقاته التخاطبية أولا، ولأهدافه الحجاجية ثانيا. لاسيما إذا أضيفت إلى جانب أشكال الحجاج المباشر "إشكالية" أنواع الحجاج غير المباشرة. وفي هذا السياق تأتي دراسة الوظائف الحجاجية للسرد التي تسهم في إنتاج الآثار الحجاجية الأكثر فعالية والتي لا تبني خطابا حجاجيا فقط، وإنما تبني فضاءات وشخصيات تتحاجج أيضا.

وهكذا؛ فقد شكل البحث في العلاقة بين السرد والحجاج الخلفية النظرية وكذا المنهجية للمشروع المعرفي لراباتال. فعلى طول امتداد فصول كتابه وهو يحرص على تبين العلاقة "الجينية/الجينيالوجية" بين السرد والحجاج. هذه العلاقة التي امتدت منذ الجذور الأولى للاستعمالات "اللغوية" الإنسانية القديمة؛ حيث كان السرد يعكس احتياجات الإنسان ومقاصده، قبل أن يصبح موضوعا جماليا ضمن الأجناس الثانوية (أو الأجناس المصغرة) (حسب باختين)[1]. الأمر الذي أكسب السرد طابعا تخاطبيا أساسيا، ومن ثمة أعاد إلى الواجهة استكشاف العلاقات الوظيفية بين السرد والحجاج.

فالأساطير والكتب الدينية وكذا الصراعات البشرية القديمة والواجبات الأخلاقية...، وغيرها من أشكال الأنشطة الإنسانية ـــ البدائية بتعبير راباتال ـــ المتعددة كلها قد سُطرت في شكل سردي. مما جعل وظيفة السرد تتمثل في لغته التي اضطلعت بدور رئيس في التعبير عن القوانين الاجتماعية التي تحل ـــ في البشر ـــ محل الموانع الغرزية. ومع تطور الاحتياجات البشرية، تطورت كذلك أنماط اللغة السردية للاستجابة للاحتياجات الجديدة التي أوجدتها الوظيفة السردية، وكان أول استخدام لها هو وضع القوانين التأسيسية التي تحكم التنظيم الاجتماعي لجميع المجموعات البشرية[2].

ويضيف آلان راباتال أن أشكال العنف والأزمات (صراع أبطال الأساطير) التي مر بها الإنسان القديم، وكذا رغبته في محاكاة العناصر المحيطة به، ومن ثمة تدفق طاقاته الترميزية؛ قد منحته بالفعل حجة بدائية أنبأت عن ظهور أشكال رمزية جديدة

---

[1] _Voir: Alain Rabatel: Argumentation en racontant (re) lire et (ré) écrire les textes littéraires, De Boeck & Larcier, s. a, 2004, Éditions de Boeck Université, Bruxelles, p10

[2] _ Voir: ibid. p. 11.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

من الحجاج. ومن ثمة يغدو الحجاج عملية تراكمية وليست عملية خطية أحادية الاتجاه. فتطوير الطاقات الصوتية والترميزية للإنسان القديم هو تطوير لمهارات السرد القديمة؛ والتي لا ينبغي إغفالها ضمن الأشكال الحجاجية العقلانية الجديدة.

وهكذا؛ فإن مختلف هذه التفاعلات بين الإنسان وحاجاته اللغوية؛ قد أسهمت في تطور الأنواع السردية، وكذا في تطلعات الذات البشرية. وبهذا تعد هذه الإضاءة التاريخية للعلاقة بين السرد والحجاج، من بين الأسس المعرفية التي تؤكد هذا التقاطع المعرفي والمنهجي. ففي الحجاج يُعتمد السرد لجعل الآخر يتبين الاستراتيجيات المتنوعة للحجج، وفي السرد أيضا يوظف الحجاج كمرتبة عليا ضمن مراتب النهج العقلاني.

هذه هي الخلفية النظرية لهذا الكتاب. أما بالنسبة للتطبيق الإجرائي، فهو يضع كتابه كهدف مركزي لتسليط الضوء على القيمة الحجاجية غير المباشرة لآثار وجهة النظر في السرد، من خلال التفاعلات بين إعادة الكتابة (الكتابة باعتبارها مكانا يتم فيه التفكير) وإعادة القراءة (المعرفة في الأدب) أي التفاعل بين فعل اللغة المدونة والأثر التي تُحدثه هذه اللغة لدى القارئ. ولذلك جاء هذا الزوج المفهومي عنوانا فرعيا لكتاب راباتال(re) lire et (ré) écrire les textes littéraires والذي أشاد من خلاله بضرورة تكسير القراءة النمطية للأدب. فراباتال يتفق مع أطروحات دفايس حول الرهانات التعليمية لقراءة النصوص الأدبية. فكلاهما يؤمن بأن قراءة الأدب، ودراسته لابد أن تفضيا إلى الوصول إلى مستوى أكثر تعقيدا من الصور النمطية للقراءة والكتابة الأدبيتين.

وعموما؛ فراباتال يؤكد أن مقاربته للسرد عبر تمثل الدرس الحجاجي؛ تتبين عبر ما أسماه بمفهوم "وجهة النظر point de vue" الذي يعدّ هو الآخر موجها حجاجيا داخل النص السردي. إذ يفيد ـــ حسبه ـــ الطريقة التي ينظر بها أحد الفاعلين (الراوي أو الشخصية المتخيلة) إلى موضوع ما (سواء أكان ماديا أمْ معنويا). أما الفاعل، القائم بالإحالة إلى الموضوع، فيعبر عن وجهة نظره سواء بطريقة مباشرة (تعليقات صريحة، أحكام قيمة،...)، أوْ بطريقة غير مباشرة بواسطة الإحالة (الضمائر مثلا)[1].

وترتبط وجهة النظر لدى راباتال بما يُطلق عليه "عملية التبئير" (Focalisation) أي طريقة التركيز على الموضوعات المرئية في عملية السرد. فالرؤية هي بمثابة الصوت السردي، لذلك يرفض الفصل بين الرؤية (من يرى) والتلفظ (من يتكلم)؛ فمن يرى هو من يتكلم. ويعطي أهمية للرائي والمرئي معا. فالمبئر والمبأر كلاهما مهمان في تأويل النص السردي. ويرفض راباتال أيضا الرؤية من الخارج في غياب عون تلفظ مصرح به "يكفي وجود أشياء مدرَكة حتى نستنتج باستدلال اقتضائي (Inférence présuppositionnelle) أن هذه الإدراكات الممثلة تحيل جميعها إلى الراوي"[2].

ومن ثمة؛ نجده يميز في كتابه "Argumentation en racontant"، بين ثلاثة أصناف من وجهات النظر. وقد قام تصنيفه بالاستناد إلى مقولة الفصل التلفظي بين بداية عملية التبئير ونهايتها. وهو ما يطلق عليه؛ تعيين حدود وجهة النظر (Bornage du point de vue). وتتمثل تلك الأصناف الثلاثة في ما يأتي[3]:

---

[1]ـــ عاشور فني: وجهة النظر حسب راباتال، فضاءات الدكتور عاشور فني، السبت 2 أبريل 2016 http://fenni-e.-spaces.blogspot.com/2016/04/blog-post_42.html

[2]ـــ ينظر: صابرة الدويبي: وجهة النظر في رواية "اللص والكلاب"، (مقال)، مجلة الجزيرة للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة الجزيرة عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي، السودان، مج 11، ع1، 30 يونيو/حزيران، 2014، ص11. ينظر Gezira Journal of Educational Sciences and Humanities, ISSN 9556-1728 VOL 11 NO 1

[3] ـــ صابرة الدويبي: وجهة النظر في رواية "اللص والكلاب"، (مقال)، مذكور، ص12.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- وجهة النظر الممثلة (Point de vue représenté): يتولى الراوي ــ المتكلم في هذه الوجهة نقل الإدراك الممثل مع وضع علامة الفصل الأولى حيث يتولى هذا الراوي المتكلم من خلال علامة البداية، تنبيه القارئ إلى وجود وجهة نظر ونسبتها إلى ذاتها المتلفظة من دون أن نلمس تدخلا واضحاً منه للنفاذ إلى وعي هذه الذات .
- وجهة النظر المروية (Point de vue raconté): فالراوي من وجهة النظر هذه يعتبر راويا من الخلف، وتبئيره للشخصيات يعد تبئيرا من الدرجة الصفر. فهو مطلع على أعماق الشخصيات وعلى أحلامها وهواجسها.
- وجهة النظر المثبتة (Point de vue asserté) : تُنسب وجهة النظر إلى الراوي الذي يتولى سرد الإدراكات والأفكار المتصلة بالشخصية مع اعتماد فصل تلفظي واضح وجليّ بينه وبين هذه الشخصية[1].

خاتمة:

وإجمالا؛ فإذا كانت المقاربة التقليدية للتبئير قد قصرت جهدها في البحث عن البؤرة (Foyer) أي"من يرى" أو "من يعرف"، فإن مقاربة آلان راباتال تتمثل في البحث عن البصمات اللغوية لوجهة نظر ما (الراوي أو الشخصية) في كيفية تقديم مرجِع (Référent) الشيء المدرَك، أي "ما هو مرئي" أو "ما عُرِف".

وخلاصة؛ فإن تصور الدكتور محمد مشبال لا يبتعد كثيرا عن تصور الباحث الفرنسي آلان راباتال؛ فإذا كان هذا الأخير قد أخلص دراساته الحجاجية ــ لاسيما كتابه السالف الذكر ــ لمقاربة المتون السردية ــ بما فيها الخطابات التعليمية الأكاديمية ــ الفرنسية بالخصوص ــ القديمة منها والحديثة. فكذلك الدكتور محمد مشبال أفرد الكثير من أبحاثه في الحجاج لمقاربة النصوص السردية الكلاسيكية منها والمعاصرة. ليخلص كل من الدارسيْن إلى العلاقة المتينة بين الخطاب السردي والخطاب الحجاجي؛ بل إن هذه العلاقة متجذرة بين الخطابين منذ أقدم العصور.

وهكذا، يتضح في ضوء هذه الدراسة أنّ السرد ليس مجرد بناء حكائي يسعى إلى المتعة الجمالية، بل هو حاجة إنسانية ووظيفة خطابية تقوم على الإقناع والتأثير. فمن خلال قراءة تصور محمد مشبال، برزت أهمية السرد في البلاغة العربية الحديثة باعتباره أداة حجاجية قادرة على شدّ المتلقي عبر تداخل البعد العاطفي والعقلي. ومن خلال رؤية آلان راباتال، اتسع منظور السرد ليشمل بعده التداولي والحواري، حيث يغدو وسيلة لإعادة إنتاج التجربة الإنسانية داخل نسق بلاغي مفتوح على التلقي والتأويل. ومن ثَمَّ، فإن الجمع بين التصورين يبرز أنّ السرد يستجيب لحاجتين متكاملتين: التعبير عن الذات والجماعة من جهة، والتأثير في الآخر وإقناعه من جهة ثانية. وبهذا المعنى يغدو السرد ممارسة بلاغية معاصرة تسهم في توسيع آفاق الدرس الحجاجي، وتؤكد أنّ الحاجة إلى السرد لا تنفصل عن الحاجة إلى الحجاج بوصفهما معًا جوهر الخطاب الإنساني.

[1] ــ نفسه، ص13.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

I. المصادر:

1. العربية:

- في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2018.

2. الأجنبية:

- **Rabatal, Alain**: Argumentation en racontant (re) lire et (ré) écrire les textes littéraires, De Boeck & Larcier, S.A., Éditions de Boeck Université, Bruxelles. 2004.

II. المعاجم:

- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم:** لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط4، 2005.
- **عناني، محمد:** معجم المصطلحات الأدبية الحديثة دراسة ومعجم إنجليزي ــ عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط3، 2003م.

III. الكتب:

1. العربية:

- **العزاوي، أبو بكر:**
- الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت ــ لبنان، ط1، 2010.
- اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م.
- **لحمداني، حميد:** بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت، والدار البيضاء، المغرب، ط1، آب، 1991.
- **يقطين، سعيد:**
- انفتاح النص الروائي ــ النص والسياق ــ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001.
- تحليل الخطاب الروائي "الزمن ــ السرد ــ التبئير"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، 2005.
- الكلام والخبر مقدمة السرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997.
- **يوسف، أحمد:** سيميائيات التواصل وفعالية الحوار: المفاهيم والآليات، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران، الجزائر، ط1، 2004م.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

2. الأجنبية:

- **Amossy, Ruth**: L'argumentation dans le discours, Armand Colin, Paris, 2012.
- **Varga, Aron Kibédi**: Discours, Récit, Image, Éditiond, Pierre Mardaga. Bruxelles, Liège, 1989.

IV. المقالات:

- **الدويبي صابرة:** : وجهة النظر في رواية "اللص والكلاب"، (مقال)، مجلة الجزيرة للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة الجزيرة عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي، السودان، مج 11، ع1، 30 يونيو/حزيران، 2014.
- **فني، عاشور:** وجهة النظر حسب راباتال، فضاءات الدكتور عاشور فني، السبت 2 أبريل 2016.-http://fenni-e-spaces.blogspot.com/2016/04/blog-post_42.html

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/